ظاهرة الإمالة وقيمتها في التناسب الصوتي
دراسة في تفسير روح المعاني للألوسي

الأستاذة: صفية طبني
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة

تمهيد:

تمثل القراءات القرآنية ظواهر الأصوات اللغوية، وقد بالغ علماء القراءات في دراسة الأصوات، ويظهر ذلك جليا في قراءة القراء وجهودهم في تخريج النص القرآني حتى يتمكن الناس بتعدد ألسنتهم أن يفهموا تلك النصوص، وهذا خدمة لكتاب الله ولغته.

إن تلك الظواهر الصوتية تمثل أداءات للهجات مختلفة يتخذها القراء وجوها للأداء القرآني.

الإمالة مصدر أمال يميل، وهي العدول على شيء والإقبال عليه(1).

يذكر ابن فارس أن" الميم والياء واللام" كلمة صحيحة تدل على انحراف في الشيء إلى جانب منه مال، يميل ميلا، والميلاء من الرمل: عقدة ضخمة تعتزل وتميل ناحية، والميلاء: الشجرة الكثيرة الفروع(2).

وتقول مالت الشمس ميولا: ضيفت للغروب، أو زالت عن كبد السماء(3).

والإمالة في الاصطلاح هي: عدول بالألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الآلف المفخمة وبين مخرج الياء(4).

وهي ضرب من ضروب التأثير الذي تتعرض له الأصوات حين تتجاور، أو تتقارب وهي والفتح صائتان، وقد يكونان طويلين أو قصيرين(5).

والإمالة ظاهرة صوتية شائعة في القراءات القرآنية، وقد جاءت بعض الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد أمال في بعض كلامه فلما سئل: أتميل؟ والإمالة ليست لغة قريش أجاب بأنها لغة الأخوال في بني سعد(6).

وقد عقد لها سيبويه بابا في كتابه أسماه" هذا باب ما تمال فيه الألفات" يقول فيه: فالألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وذلك قولك: عابر، وعالم، ومساجد، ومفاتيح، وعذافر، وهابيل، وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها، أرادوا أن يقربوها منها كما قربوا في الإدغام الصاد من الزاي حين قالوا: صدر، فجعلوها بين الزاي والصاد(7).

الملاحظ من كلام سيبويه أن الإمالة تدخل في باب المماثلة الصوتية، لأن الحرف يتأثر بحرف آخره فيصبح قريبا منه في النطق، وهذا ضرب من التناسب بين الحركات حتى يسهل النطق ولا يثقل على المتكلم.

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه ابن جني عندما عد الإمالة في باب الإدغام الأصغر يقول:" وأما الإدغام الأصغر فهو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك، وهو ضروب، فمن ذلك الإمالة، وإنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت وذلك نحو عالم وكتاب، وتسعى، وقضى واستقضى، ألا تراك قربت فتحة العين ممن عالم نحو كسرة اللام منه، با، نحوت بالفتحة نحو الكسرة، فأملت الآلف نحو الياء(8).

وحكمها الجواز، لأن ذلك الحرف الممال يمكن فتحه، والأصل الفتح لأنه النطق القويم للغة، والإمالة فرع، وتكون غالبا في الأسماء المتمكنة، والأفعال، والحروف ولكن وجودها في الحروف ليس مطردا، بل يندر ذلك.

وقد أجمع علماء العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز، وعلى أن قبائل نجد قد عرف عنهم الإمالة في كلامهم، ويظهر أن القبائل العربية قبل الإسلام وبعده قد انقسمت إلى شعبتين الشعبة الأولى توثر الفتح، أو بعبارة أخرى تستقيم ألسنتها بغيره، والشعبة الأخرى قد شاعت فيها الإمالة(9).

إن البحث عن التناسب الصوتي هو الذي أدى إلى تفشي ظاهرة صوتية كالإمالة في كثير من اللهجات، ففي حين توثر لهجة الفتح ولاتعرف غيره، ترى أن قبيلة أخرى لا يستقيم لها ذلك، ومن المتوقع أيضا" أن تكون قبائل الحجاز وصلت إلى المرحلة الرابعة من مراحل التطور وهي الفتح ولكن مرت عليه فترة من الفترات كانت عند المرحلة الثانية وهي الإمالة ولما انتقلت إلى المرحلة الرابعة وهي الفتح، وشاعت هذه المرحلة عند قبائل الحجاز، بقيت قلة قليلة تنطق بالإمالة، وهذا ما يسمى بالركام اللغوي، ومعناه أن الظاهرة اللغوية حينما تموت، لا تموت تماما، بل تبقى بقايا تدل عليها تتصارع مع

الزمن، ومن أمثلة ذلك أكلوني البراغيث، وكسر أحرف المضارع، وغير ذلك..."[10] وهذا يدل على نسبة تفشي ظاهرة الإمالة من قبيلة إلى أخرى.

وللإمالة أنواع ثلاثة وهي[11]:

- ✓ إمالة الفتحة قبل الألف إلى الكسرة، فيميل اللف نحو الياء.
- ✓ إمالة الفتحة والراء إليها نحو أكبر.
- ✓ إمالة الفتحة قبل الهاء إلى الكسرة كما في رحمه.

واللسان مع الفتح يكاد يكون مستويا في قاع الفم، فإذا اخذ في الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذي يسمى بالإمالة، وأقصى ما يصل إليه أول اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى، هو ذلك المقياس الذي يسمى عادة بالكسرة، طويلة كانت أو قصيرة، فهناك إذن مراحل بين الفتح والكسر لا مرحلة واحدة، من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين: إمالة خفيفة وإمالة شديدة[12].

إذن فالغرض من الإمالة هو البعد عن الثقل في النطق وهذا من باب التناسب والتقارب ويؤدى في الحالات والمواقف الاجتماعية التي تعترضه.

أما أسباب الإمالة فهي ترجع إلى أحد عاملين[13]:

- ✓ الأصل اليائي.
- ✓ الانسجام بين أصوات اللين.

ونعرض الآن إلى أمثلة الإمالة التي وردت في تفسير روح المعاني والتي قرأ بها أشهر القراء، فقد انتشرت الإمالة بين معظمهم، كعاصم وهو من قراء الكوفة كانت قراءته تشتهر بالإمالة في رواية أبي بكر بن عياش، كما أشتهر حمزة والكسائي وهما كوفيان بالإمالة[14].

أولا: الإمالـــة فـــي الأسمـــاء

قرأ يحي بن يعمر وأيوب السختياني وقتيبة بن مهران عن الكسائي قوله تعالى: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}(الفاتحة: 4) بالإمالة البليغة، ولم يطلع على ذلك أبوعلي الفارسي فقال لم يمل أحد[15].

وقرئ بالإمالة في قوله تعالى:{ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}(البقرة: 7).

بإمالـــة أبصارهم، ووجه الإمالـــة مع أن الصاد حرف مستعـــل وهو مناف لها

لاقتضائها لتسفل الصوت، مناسبة الكسرة واعتبرت على الراء دون غيرها بمناسبة الإمالة الترقيق والمشهور عند أهل العربية أن ذلك لقوة الراء لتكراره على اللسان في النطق به فإنه يرتعد ويظهر ذلك إذا شدد وأوقف عليه فكسرته بمنزلة كسرتين فقوي السبب حتى أزال المانع[16]، ومن لم يملها أجراها على الأصل وهي الحجازية[17].

وأمال حمزة والكسائي{ الْهُدَى}(البقرة: 16) وهي لغة بني يتيم وعدم الإمالة لغة قريش[18]، وفي مثله قرئ{ أَوأَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}(طه: 10)، وقال أبوالبقاء: الجيد أن تكتب بالألف ولا تمال لأن الألف بدل التنوين في القول المحقق وقد أمالها قوم وفيه ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون شبه ألف التنوين بلام الكلمة إذا اللفظ بهما في المقصور واحد.

الثانـــي: أن يكون لام الكلمة ولم يبدل من التنوين شيء في النصب.

الثالـــث: أن يكون على رأي من وقف في الأحوال الثلاثة من غير إبدال[19].

وفي هذا المثال نحونا بالألف نحو الياء، وبالفتحة نحو الكسرة، فأثرت الكسرة في فتحة الدال، وامتزجت الفتحة مع طرف من الكسرة، فصارت الإمالة، فكان ذلك بعثا للتقارب والانسجام الصوتي، وتصيير الأصوات من نمط واحد، وهذا نظير إشمامهم الصاد زايا في نحو" يصدر" للتناسب، لأن الصاد مهموس، والدال مجهور، فبينهما فقرة والزاي تشاكل الصاد في الصغير، والدال في الجهر، فإذا اشربوا الصاد زايا حصل تناسب الأصوات[20].

وقرأ أبوعمرو:{ وَمَن كَانَ فِي هَـــذِهِ أَعْمَى فَهُو فِي الآخِرَةِ أَعْمَى}(الإسراء: 72) الأول وتفخيمه الثاني، وبيان أن الآلف في الأول آخر الكلمة ترى، وتحسن الإمالة في الأواخر وهي في الثاني على تقديره كونه أفعل تفضيل، كأنها في وسط الكلمة، لأن افعل المذكور غير معروف باللام، ولا مضاف لا يستعمل بدون من الجارة للفضل عليه ملفوظة أو مقدرة وهو معها في حكم الكلمة الواحدة ولا تحسن الإمالة فيها ولا تكثر كما في المتطرفة[21] وحمزة والكسائي وأبا بكر يميلون الأعمى في الموضعين[22].

وقرأ غير الكوفيين:{ قَالَ يَا بُشْرَى هَـــذَا غُلاَمٌ}(يوسف: 19)،- يا بشراي- بالإضافة، وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي، وقرأ ورش بين اللفظين[23].

وقد أمال حمزة كـــل ألف متطرفـــة رسمت في المصاحـــف ياء في الأسمـــاء

والأفعال[24].

وقرئ قوله تعالى:{ يس}(يس: 1)، بفتح الياء وإمالتها محضا وبين بين[25] وقرأ مجاهد{ بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}(هود: 41)، بصيغة اسم الفاعل– مجريها ومرسيها وخرج ذلك أبو البقاء على أنهما صفتان للاسم الجليل[26] وقد أميلت للأصل اليائي[27].

وفي قوله تعالى:{ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَو تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ}(النساء: 9)، فقد قال أبو البقاء: يقرا بالتفخيم على الأصل وبالإمالة لأجل الكسرة وجاز ذلك مع حرف الاستعلاء لأنه مكسور مقدم ففيه انحدار، وكذلك" خافوا" يقرأ بالتفخيم على الأصل وبالإمالة لأن الخاء تتكسر في بعض الأحوال، وهو" خفت"[28].

والإمالة هنا ضعيفة والأصل التفخيم لأن ضعافا فيها حرف مفخم وهو الضاد كذا خافوا فيها حرف مستعل وهو الخاء.

وقرأ الكسائي برواية الدوري بالإمالة في قوله تعالى:{ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ }(النور: 35).

ثانيـــا: الإمالـــة فـــي الأفعـــال

أمال حمزة{ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}(البقرة: 10)، في عشرة أفعال ووافق ابن ذكوان في إمالة جاء وشاء وزاد هذه، وعنه خلاف في زاد غيرها.

والإمالة لتميم والتفخيم للحجاز، وقد نظم أبو حيان تلك العشرة فقال:

وعشـــرة أفعـــال تمال لحمـــزة   فجـــاء وشـــاء ضـــاف ران وكمـــلا
بزاد وخاب طاب خاف معا وحاق   زاغ سوى الأحزاب مع صادها فلا[29]

فمن فخم نصب(الزاي) فقال(زادهم)، ومن أمال مكسر(الزاي) فقال(زادهم) لأنها من(زدت) أولها مكسور[30].

وعن الحجدري أنه قرأ:{ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ}(مريم: 6)،" وأرث" بإمالة الواو،[31] وقراءة(وارث) يعني به الإمالة المحضة لا الكسر الخالص[32].

والكسرة إذا كانت متقدمة على الألف كانت أدعى للإمالة منها إذا كانت متأخرة، وذلك أنها إذا كانت متقدمة كان في تقدمها تستعل بالكسرة ثم تصعد إلى الألف، وإذا كانت الكسرة بعـــد الآلف كان في ذلك تستعل بعد تصعد والانحدار من عالٍ أسهل من الصعود

بعد الانحدار وإن كان الجميع سببا للإمالة[33]، وقد عد الحجدري هذا الفعل من قبيل الاسم أي:" يزنه فاعل على أنه فاعل يرثي على طريقة التجريد كما قال أبو الفتح، وغيره أي يرثي ولي من ذلك الولي أو به فقد جرد من الولي وليا[34].

وقرأ الأعمش وطلحة:{ فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ}(مريم: 23)، قرآ" فأجاءها" بإمالة فتحة الجيم[35] فالذي يميل على الكسر يدل على أن الفعل من ذوات الياء، والذي يفتح فلأن الفتحة قد انقلبت صورتها إلى الألف، ويف الألف حظها من الفتح وكل مصيب[36].

وفي قوله تعالى:{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ}(الأحزاب: 22)، فقد قرئ بإمالة الراء من" رأي" نحو الكسرة وفتح الهمزة وعدم إمالتها، وروي إمالتها وإمالة الهمزة دون الراء[37].

وفي بعض المصاحف كما في- الدر المنثور- قرئ قوله تعالى:{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}(النساء: 3) كتبت- ما طيب لكم- بالياء [38].

والكتابة بالياء دليل على أن هذه اللفظة تقرأ بالإمالة، فالألف المتوسطة إن كانت في" فعل" يقال فيه" فعلتُ" كــ" طاب" و" خاف" أميلت ولم ينظر إلى ما انقلبت عنه، وكذلك إذا كانت عينا، فلا تخلو من أن تكون من واو أو ياء، فإذا كانت منقلبة من ياء ساغت الإمالة فيها في اسم كانت أو فعل[39].

قرأ روح والأعمش:{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً}(النور: 21)، قرأ" زكى" بالتشديد والإمالة، وكتب" زكي" المخفف بالياء مع أنه من ذوات الواو وحقها أن تكتب بالألف [40].

(وزكى) أصل ألفه الثاني واوا، فتقول" زكوتُ وأزكيتُ" فتثبت الواو إذا كانت ثالثة، وترجع" الياء" في موضعها إذا كانت رابعة[41]. ولبيان الإمالة تكتب الكلمة في بعض المصاحب بالياء كما جاء في مثال" طاب لكم" أويكتب بالحروف المنفصلة يقول القراء: لئن أنجانا قراءة أهل الكوفة، وكذلك هي في مصاحفهم-(أن ج ي ن ألف)، وبعضهم بالألف(أنجانا) وقراءة الناس(أنجيتنا) بالتاء[42] فقد رسمت هكذا لتدل على أنها يجب أن تقرأ بالإمالة.

وقرأنــا في قوله تعالى:{ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ}(محمد: 22)،" عسيتُم" بكســر

السين المهملة، وهو غريب[43].

والقراءة بالكسر دليل الإمالة، ومن أمالها فلأنها فعل متصرف، وإلحاق الضمائر بعسى كما في سائر الفعال المتصرفة لغة أهل الحجاز، وبنوتميم لا يلحقونها به ويلتزمون دخوله على أن والفعل فيقولون الزيان عسى أن يقوما، والزيدون عسى أن يقوموا[44].

ثالثـــا: الإمالـــة فـــي الحـــروف

الأصل في الحروف عدم الإمالة، لأن هذه الأخيرة تحسن فيما هو متصرف والحروف غير متصرفة ولا تثنى ولا تجمع، فالقياس يأبى الإمالة في الحروف، لأن الحروف أدوات جوامد غير متصرفة، ولا تلحقها تثنية ولا جمع ولا تغيير فلا تصير ألفاتها ياءات[45].

وما ورد من الحروف بالإمالة، فهو ما شبه بالاسم في عدد الحروف، أي ما كان من ثلاثة حروف، أو أكثر، أو لقرب هذا الحرف من الاسم.

ومن أمثلة ما جاء عند الألوسي، قوله تعالى:{ أَنَّا صَبَبْنَا}(عبس: 25)، فقد قرأ الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجههما ورضي سبحانه عنهما" أنى صببنا" بفتح الهمزة والإمالة على معنى فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء{ صَبّاً} عجيبا[46].

تكتب(أنا) أثناء الإمالة بالياء، لأن إمالتها أحسن، والداعي إلى إمالة أنى أنها ظرف، والظرف مستقل بنفسه، يغني عن الجملة" فأنى" تكون مثل أني كخلفك، وإنما هو اسم صار ظرفا، فقرب من عطشى[47].

فلولا أن" أتى" شبهت بالاسم ولاستغلالها في المعنى، لما حسنت إمالتها ولا صحت" ولأنها غير محتاجة إلى ما يوضحها، كاحتياج إذا وما، فقربت من المعرفة فأميلت لذلك[48].

والألوسي يرى أن الحروف يمتنع فيها الإمالة[49]، وقد جاءت أمثلة الإمالة أيضا في فواتح السور، فمن ذلك قوله تعالى:{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}(يونس: 1)

فقد قرئ بتفخيم الراء المفتوحة وهو الأصل وآمال أبو عمرو وبعض القراء إجراء لألف الراء مجرى الألف المنقلبة عن الياء فإنهم يميلونها تنبيها على أصلها، وفي الإمالة هنا دفع توهم أن. را. حرف كما ولا[50].

وقرأ الجمهور{ كهيعص}(مريم: 1)، كاف بإسكان الفاء وروي عن الحسن ضمها، وأمال نافع ها ويا بين اللفظتين[51].

وفي هذه الآية قراءات أخرى وهي: قرأ الحسن بضم الهاء وعنه أيضا ضم الياء وكسر الهاء، وعن عاصم ضم الياء وعنه أيضا كسرهما، وعن حمزة فتح الهاء وكسر الياء[52].

ووجه الإمالة والتفخيم أن هذه الألفاظ لما لم يكن لها أصل حملوها على المنقلبة عن الواو تارة، وعن الياء أخرى فجوز الأمران دفعا للتحكم[53]، وإمالة هذه الحروف لا تمتنع، لأنها ليست بحروف معنى، وإنما هي من أسماء ما يتهجى به، فلما كانت أسماء غير حروف، جازت فيها الإمالة، ويدل على أنها أسماء إذا أخبرت عنها أعربت، كما أن أسماء العدد إذا أخبرت عنها أعربت[54].

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة نستطيع أن نقول إن التناسب الصوتي الناتج عن ظاهرة صوتية هي الامالة هو وصف لما تمتاز به العربية من خصائص صوتية زادها القرآن في إبراز أسرار هذا الجمال وقوة التأثير وفي إثبات قيمة النظم القرآني الذي يجمع بين اللفظ وبلاغة المعنى.

الهوامش والإحالات:

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة(ميل)، 11/ 636.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة(ميل)، 5/ 290.

(3) القاموس المحيط، مادة(ميل)، 4/ 53.

(4) ابن يعيش، شرح المفصل 9/ 54.

(5) عبده الراجحي، اللهجات العربية، ص 134.

(6) أنظر، الاتقان: 1/ 91.

(7) الكتاب: 4/ 117.

(8) ابن جني، الخصائص: 2/ 141.

(9) في اللهجات العربية، ص 53، وأنظر: شرح المفصل: 9/ 54، النشر: 2/ 30.

(10) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 291 وما بعدها.

(11) مجدى ابراهيم، في أصوات العربية، ص 128.

(12) في اللهجات العربية، ص 57.

(13) نفسه، ص 60.

(14) أنظر غاية النهاية، 1/ 459.

(15) روح المعاني: 1/ 138.

(16) روح المعاني: 1/ 222. 223.

(17) الكشف: 1/ 179.

(18) روح المعاني: 1/ 261، أنظر أدب الكاتب، ص 204.

(19) روح المعاني: 16/ 243.

(20) الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، 4/ 220، أنظر الخصائص: 2/ 146، باب تصايف الألفاظ لتعاقب المعاني.

(21) روح المعاني: 15/ 179، أنظر الكرماني، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص 250 وما بعدها، أنظر شرح المفصل: 9/ 95، اللهجات العربية في القراءات القرآني، ص 138.

(22) نفسه/ ن س

(23) نفسه: 12/ 305.

(24) النجوم السائرة، ص 106.

(25) روح المعاني: 22/ 85.

(26) الكشف: 1/ 525.

(27) روح المعاني: 4/ 334، أمال حمزة وحده(ضعافا خافوا) وقرأها المباقون بالتفخيم، أنظر معاني القراءات، 1/ 292.

(28) نفسه: 18/ 244.

(29) روح المعاني: 1/ 246.

(30) معاني الأخفش: 1/ 40.

(31) روح المعاني: 16/ 92.

(32) البحر:6/ 183.

(33) شرح المفصل: 9/ 56.

(34) روح المعاني: 16/ 92.

(35) نفسه: 16/ 118.

(36) معاني الزجاج: 1/ 376. 377.

(37) نفسه: 21/ 256.

(38) روح المعاني: 4/ 298 وهي قراءة ابن أبى إسحاق والأعمشي، وفي مصحف أبي (طيب) وهو دليل الإمالة، أنظر البحر: 3/ 162.

(39) أنظر شرح المفصل: 9/ 58.

(40) روح المعاني: 18/ 183، وأنظر الكشف: 1/ 177.

(41) الكشف: 1/ 207، وأنظر شرح المفصل: 1/ 57.

(42) معاني الفراء، 1/ 338.

(43) روح المعاني: 26/ 105، وأنظر أدب الكاتب، ص 206.

(44) نفسه: 26/ 104. 105.

(45) شرح المفصل: 9/ 95، انظر معاني الزجاج: 2/ 235.

(46) روح المعاني: 30/ 80، الكشاف: 04/ 690.

(47) الكتاب: 4/ 135.

(48) شرح المفصل: 9/ 66.

(49) روح المعاني: 11/ 85.

(50) نفسه/ ن ص.

(51) نفسه: 16/ 83.

(52) نفسه: 16/ 83، معاني الزجاج: 3/ 317.

(53) نفسه: 16/ 84.

(54) مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص 266.